أم المؤمنين:

خديجة بنت خويلد
سيدة النساء

تمهيد عن مكانة المرأة المسلمة:

ليس هناك حاجة لشرح نظرة الإسلام الواقعية والمثالية للمرأة ، وأن النساء شقائق الرجال ، وأن الشريعة الغراء قررت ـ منذ أربعة عشر قرناً ، وعند نزول الوحي ـ أن المرأة كالرجل في الأهلية والحقوق والتكاليف والواجبات والمسؤولية ، ولها ميزات على الرجل في أشياء ، وللرجل ميزات عليها في أشياء ، بحسب التكوين الفطري لكل منهما ، وبحسب الوظيفة التي منحها الإسلام لهما.

ويكفي التذكير بجانب من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، التي تصرح بذلك ، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ

أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ، وروى البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً»[١].

وقد أدت المرأة في صدر الإسلام دوراً عظيماً ، يكاد أن يكون خيالاً وأسطورة إذا قورن مع نساء العصر ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كنَّ من جيل الصحابة الفريد الذي رباه رسول الله ﷺ فأحسن التربية ، وسلك معه الطريق القويم ، والمنهج الرباني التربوي المثالي في القرآن الكريم ، فخلد الدهر أسماء الصحابيات وأمهات المؤمنين بأحرف من نور في إنتاج المرأة العالمي والإنساني ، ولم يقتصر الأمر على الصحابيات ، فتاريخ الإسلام مليء بالنساء الفضليات.

سيدة الإسلام الأولى:

ولنترك الكلام الخيالي ، والجدل النظري العابث ، لنلتقي مع الحقيقة الواقعة ، ولنأخذ قبساً عملياً تطبيقياً ، وبرهاناً ساطعاً عن مكانة المرأة المسلمة ، المتمثلة في سيدة الإسلام الأولى ، خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي ، وهي زوجة رسول الله ﷺ ، وأم المؤمنين.

يقول ابن هشام: «وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقته بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدَّق بما جاء فيه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ: لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه إذا رجع إليها: تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون أمر الناس ، رحمها الله»[٢].

---

(١) هذا طرف من حديث صحيح ، (فيض القدير ١/ ٥٠٣).
(٢) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ١/ ٢٥٩ د. عبد الحميد.

وبهذه الكلمات القليلة صور ابن هشام حياة السيدة خديجة الكبرى التي تمثل أروع الأثر في تاريخ المرأة المسلمة ، وتعتبر أنموذجاً مشرفاً في مواقفها مع رسول الله ﷺ.

الزوجـة المثاليـة:

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تتمتع بجمال أخاذ ، مع الخلق الرضي ، والصفات الحميدة ، وتقدم لخطبتها في صباها أفاضل قريش من بني هاشم وعبد شمس وبني مخزوم وبني أسد ، فردت الكثيرين ، وبعد الخامسة عشرة من عمرها خطبها أبو هالة بن زرارة التميمي ، وكان رجلاً كبيراً في قومه ، موفور النعمة ، ذا بأس وشهامة ، فقبلت الزواج منه ، وأمهرها مالاً ضخماً ، تكريماً لها ، وإعجاباً بها ، وبما يتناسب مع ثرائه ومكانته ، وعاشا زوجين سعيدين ، لمدة قصيرة ، لأن يد المنون اختطفت زوجها المخلص بعد ثلاث سنوات فقط ، وأنجبت له طفلين ، وهما هالة وهند ، وهما ولدان ذكران وإن كان يظهر على الاسم أنهما بنتان ، وترملت السَّيدة خديجة شهوراً ، فتقدم لخطبتها ثري آخر من أشراف مكة ، وهو عتيق بن عائذ المخزومي ، وولدت له بنتاً ، سميت هنداً بنت عتيق ، وكان عمر الزواج الثاني قصيراً أيضاً ، فمات عتيق ، وأعرضت خديجة عن الزواج بعد فقد هذين الرجلين الكريمين برغم تهافت الرجال عليها، واتجهت إلى تربية أولادها ، والاشتغال بالتجارة واستثمار أموالها[1].

وكانت السيدة خديجة تعرف برجاحة العقل ، وحسن التدبير ، وكانت بصيرة في عواقب الأمور ، ومحنكة في الحياة ، صقلتها التجربة ، ونضجت في خبرة الناس ، وتفرست بمحمد بن عبد الله ،

---

(١) أم الاشتراكية ، خديجة بنت خويلد ص ٢٥ وما بعدها.

وأرسلته في تجارتها ، وقالت له لما أرادت أن يتوجه في تجارتها : «إنه قد دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك»[1] ، ثم انقدح ذهنها وعقلها فيه ، وتقدمت لخطبته ، لما وصلها من تقارير تصف أمانته وصدقه ، وإخلاصه في العمل ، وبركة التجارة في يديه ، وقالت له في حفل الخطبة : «إني قد رغبت فيك لحسن خلقك ، وصدق حديثك»[2] ، وتمَّ العقد ليكون أسعد زواج في التاريخ ، وأبرك عمل في الدنيا والآخرة ، وقامت الحياة الزوجية المثالية ، لتكون السيدة خديجة قدوة نساء العالمين في الاقتداء بها في معاملة الرجل ، والوفاء له ، والإخلاص إليه ، وتوفير جميع وسائل السعادة والراحة في البيت ، وللتخفيف عنه في المصاعب التي يلاقيها الزوج في الحياة العامة ، ومعاملة الناس ، وعقبات الدعوة ، وما يلاقيه من الفشل أو الصدمات في شؤونه وأحواله وسائر أعماله ، وأنجبت السيدة خديجة لرسول الله ﷺ ابنه القاسم ، ثم زينب ، ثم رقية ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة الزهراء ، ثم عبد الله الملقب بالطاهر ، وكانت السيدة خديجة أماً مثالية وخير المربيات لأولادها ، فجعلت منهم مدارس للفضائل والبطولة[3] .

ولم يتزوج رسول الله ﷺ قبل خديجة غيرها ، ولا تزوج في حياتها غيرها ، وبقيت معه ﷺ أربعاً وعشرين سنة وأشهراً ، وتوفيت في العام العاشر للبعثة ، وقبل الهجرة بثلاث سنوات على الأرجح[4] ، وذلك في رمضان ، وبعد أيام قلائل من وفاة أبي طالب .

---

(١) الإصابة ٤/ ٢٨٢ .

(٢) الإصابة ٤/ ٢٨٢ .

(٣) أم الاشتراكية ، ص ٨٣ .

(٤) تهذيب الأسماء ٢/ ٣٤١ ، أم الاشتراكية ص ١٢٨ زاد المعاد ١/ ٧٧ ط دمشق / ١٠٥ .

خديجـة أول النـاس إسـلامـاً:

وكان للسيدة خديجة مواقف مشهورة مع رسول الله ﷺ قبل البعثة، فقد واسته بمالها، ومنحته السلطة والولاية بالتصرف فيه، كما يشاء، وكانت تدعى قبل النبوة بالطاهرة[1]، وكانت تقف مع زوجها محمد بن عبد الله في كل شيء، وتراعي مشاعره، وتعبّد الطريق أمامه في التفكير والتحنث في غار حراء، وتهيىء له وسائل الراحة، وتمده بالطعام والشراب إلى الغار، كما كانت تعظم رسول الله ﷺ، وتصدق حديثه قبل البعثة وبعدها[2].

وعندما نزل الوحي كانت السيدة خديجة أول الناس إيماناً بالله، وتصديقاً برسول الله ﷺ، وكانت المواسية له، والمؤانسة لوحشته، ولم تقف موقفاً سلبياً في مجال الدعوة، بل تخطت ذلك إلى العمل الإيجابي، فقالت لرسول الله ﷺ ـ عندما بدأه الوحي في غار حراء، ورجع يرجف فؤاده، فدخل عليها، وأخبرها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي ـ قالت خديجة: كلا، والله، لا يخزيك الله أبداً» وذكرت خصاله الحميدة، كأدلة على قناعتها، فقالت: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدومَ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل، وكان ابن عم خديجة، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، وكان عالماً حكيماً، وله خبرة واسعة في الديانات، ودراية شاملة بأمر النبوات، وكان قد تنصر في الجاهلية، ويكتب الكتاب العبراني. . . ، فقالت له خديجة: يابن عم، اسمع من ابن أخيك، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة:

---

(١) الإصابة ٤/ ٢٨١.

(٢) الإصابة ٤/ ٢٨٢.

«هذا الناموس الذي نزل على موسى . . »[1] .

وهكذا كانت السيدة خديجة أول من أسلم ، وأول الناس إيماناً برسول الله ، كما قال الزهري وخلائق من العلماء[2] ، وسارعت بالدخول في الإسلام ، وهي أعرف الناس بشؤون الرسول ﷺ الخاصة والعامة ، وأكثر الناس معرفة لمعدنه وأخلاقه وصدقه وأمانته ، فآمنت بالله وبالإسلام وبالرسول ، وبرهنت على رجحان العقل ، وبعد النظر ، ودقة الوعي والإدراك ، وقدمت أملاكها في سبيل الله والدعوة .

فضائل خديجة ومناقبها :

تركت مواقف خديجة الخالدة أثراً عطراً في نفس رسول الله ﷺ ، فكان يحترمها ويقدرها حق قدرها ، وكان عليه الصلاة والسلام يمنحها الثقة والوفاء والتقدير والإخلاص ، وكان يرجع إليها في النائبات والملمات ، فيستشيرها ، ويسمع رأيها ، وكلما اعترضته المصائب والأحداث عاد إلى بيتها ليجد السلوى والطمأنينة والراحة النفسية وطيب الكلام ، ليخفف عن نفسه ، ويستريح قليلاً ، ثم يعود إلى الدعوة والجهاد من جديد ، وبشرها رسول الله ﷺ بالجنة ، فيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب» ، وفي حديث آخر أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «أقرىء خديجة السلام من ربها» فقال لها رسول الله ﷺ: «يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك» فقالت

---

(١) رواه البخاري ومسلم في حديث بدء الوحي ، الفتح ١/ ١٨ ـ٢١ ، النووي على مسلم ٢/ ٢٠٠ ، زاد المعاد ٢/ ١١٤ انظر كلام وتعليق ابن القيم على ذلك في زاد المعاد ٣/ ١٤ .

(٢) ونقل الثعلبي الإجماع عليه ، (تهذيب الأسماء ٢/ ٣٤١).

خديجة: «الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام»[1] ، وروى الإمام مسلم عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنت عمران»[2] وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة ، خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[3].

ولما توفيت خديجة رضي الله عنها تركت فراغاً كبيراً وراءها ، وأحدثت شرخاً في بيت النبوة والرسالة ، وسمي العام الذي توفيت فيه ، هي وأبو طالب عم النبي ﷺ ، بعام الحزن ، لأنها كانت وزير صدق على الإسلام[4] ، وقد وَجَدَ رسول الله ﷺ على خديجة حتى خشي عليه ، حتى تزوج بعائشة[5].

وكان رسول الله ﷺ يذكرها بعد وفاتها ، ويصل صويحباتها ، ويحسن إلى معارفها[6] ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة» وقد ذكرت له يوماً ، فقال: «إني لأحب حبيبها» ، وتشاء الأقدار أن تعاتب السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ على كثرة ذكره

---

(١) رواه مسلم والبخاري والنسائي والحاكم عن أبي هريرة.
البخاري في المناقب ٧/ ١٠٥ ، زاد المعاد هامش ١/ ٧٧ ط دمشق ، الإصابة ٤/ ٢٨٢ ، ابن هشام ١/ ٢٥٩ ، تهذيب الأسماء ٢/ ٣٤١.

(٢) تهذيب الأسماء ٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥.

(٤) الإصابة ٤/ ٢٨٢.

(٥) الاستيعاب ، ابن عبد البر ٤/ ١٨٢٣.

(٦) قال ابن حجر: إسناده قوي مع إرساله ، الإصابة ، له ٤/ ٢٨٢.

خديجة ، مما أثار الغيرة في نفسها ، فأعلن عليه الصلاة والسلام الوفاء لها ، ومنحها وسام الفخر والعزة ، وبيَّن مناقبها وفضائلها ، قالت عائشة: ما غِرت على امرأة ما غرت على خديجة ، وما بي أن أكون أدركتها ، ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها ، وقالت في حديث آخر: «كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة ، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً ، قد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب ، ثم قال: لا ، والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذا كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذا حرمني الناس ، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء» ، وروى ابن سعد أن خولة بنت حكيم جاءت فقالت: يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة!؟ قال: «أجل ، كانت أم العيال ، وربة البيت»[1].

ومن مناقب السيدة خديجة أن الوحي هبط في بيتها الذي سمي منزل الوحي ، ومهبط النبوة ، وقد انحصر النسب الشريف ، وفروع الشجرة النبوية في ابنتها فاطمة الزهراء ، وهي سيدة نساء العالمين ، والسيدة البتول ، وأم الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة»[2].

وبعد:

هذه قبسات من سيرة أم المؤمنين ، خديجة بنت خويلد ، التي يغض المرءُ طرفهُ حياءً من مناقبها وأخلاقها ، وصفاتها ، ويتيه إعزازاً وفخاراً وتقديراً لها ، ويتمنى أن تلد النساء مثلها ، ليسير الآباء والأمهات على منهج خديجة في تربية بناتهم ، ولتضع المرأة العاقلة في عصرنا الحاضر

---

(١) أم الاشتراكية ص ٨٣ ، ١٠٩.

(٢) رواه البخاري ٢/ ١٦٤ ط العثمانية ، كتاب الأنبياء ، باب ٤٥ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾.

سيرة خديجة الكبرى أمام عينيها ، لتقتدي بها ، وتعمل على منوالها ، ولتقدم لدينها وآخرتها نماذج من التضحية والجهاد الذي سلكته هذه المرأة العظيمة ، رضي الله عنها وأرضاها.

وحري بهذه الأمة أن تضع خديجة الكبرى في المكانة العليا ، وأن تتخذ منها المثل الأعلى للمرأة العربية المسلمة ، وقد شهد الأجانب بذلك ، فقال الكاتب العالمي ويلز في كتابه: «ملامح تاريخ الإنسانية»: «إن خديجة أولى سيدات التاريخ عظمة ومكانة».

وقال المستشرق در منغم في كتابه «حياة محمد»: «خديجة تلك السيدة الكاملة التي فطرت على تفريج الغم ، وترويح النفس ، وإلهام الأمن والسلام ، السيدة التي كانت جامعة لمكارم الزوجات الصالحات ، وحنان الأمهات العطوفات ، تثبت زوجها ، وتأخذ بيده في منطق رائع ، وحكمة بالغة ، وتقدير حاسم. . .»[1].

ومناقب أم المؤمنين خديجة بنت خويلد كثيرة ، جزاها الله عن الإسلام والمسلمين خيراً ، والحمد لله رب العالمين.

(١) أم الاشتراكية ص ١٣٣ وما بعدها.